اللغات التي عرفها عنترة

وُلِد عنترة في الجزيرة العربية حوالى سنة ٥٣٢ ميلادية، كما تقول بعض المصادر في كتب الأدب، ومات قُبيل الإسلام بقليل. ويزعم بعض الناس، وهم على حقّ، أنّه كان له إخوة من أُمّه سُبُوا مع زبيبة إلى الجزيرة من السودان الذي كان مصدراً هامًا لتصدير الرقيق عنوةً واقتساراً منذ أكثر من أربعة آلاف سنة. وكانت سواكن ـ على أغلب الظنون ـ هي الميناء السودانية التي تُستخدم في تصدير الرقيق إلى الجزيرة العربية، بل وإلى مصر أحياناً أخرى. كما كان المصريّون منذ فجر تاريخهم يستخدمون طريق النيل في تجارتهم الرائجة في تلك العهود.

كان السودان في ذلك الوقت تحت سيطرة مملكتين قويّتين، هما: مملكة نبتة، ومملكة البجة. وكانت هذه الممالك في حلف مستمرّ أغلب الوقت، كما كانتا تُثيران حروباً قويّة على الرومان الذين احتلّوا

مصر، واستمرّت غاراتهم على مصر حتى سنة ٥٤٠ من الميلاد.

ولمّا كانت البلاد خاضعةً لهاتين الدولتين ـ النبتية والبجاوية ـ فإنّه كان ظاهراً أنّ هنالك لغتين سائدتين في البلاد، وهما: البجاوية والنبتيّة. ولم تكن أُمّ عنترة بجاوية أو نبتية؛ وذلك لأن تقاطيع وجهها ولونها كانت تختلف عن تقاطيع ولون هذين الشعبين. بل كانت سوداء اسْتُجْلبت من مناطق سوداء في السودان، ثم ما لبثت أن عاشت حقبة بين نبتة والبجة، حيث اضطرّت اضطراراً إلى أن تتعلّم لغة سادتها من النبتيّين والبجاويّين. وكان كِلاَ هذين الشعبين يستعمل الكتابة الهيروغليفية في الكتابة في ذلك العهد، وكان من العسير بعض الشيء على والدة عنترة أن تأخذ بنصيبٍ وافر من معرفة هاتين اللغتين. ومما لا شكّ فيه أنها عاشت بعض السنوات بين هذين الشعبين قبل أن يتمّ تصديرها إلى الجزيرة العربية. ويجدر بنا أن نشير إلى أن أخوي عنترة من أُمّه كانا أكثر استجابةً لتعلّم هاته اللغات من أُمّهما، بل ربما كانا يبزانها في ذلك بكثير. ورحل الثلاثة إلى الجزيرة العربية، وهم من علماء اللغات في ذلك العصر، ويصلحون لأن يكونوا مترجمين لثقافات ولغات المدنيّات الثلاث، لو كانت هناك هيئة أُمم متحدة!

أمّا عنترة، فقد وُلِد في الجزيرة العربية، ولكنه نشأ في أحضان والدته في طفولته وبين أخويه، فكان عليه أن يُسايرهم في طفولته في التحدّث بتلك اللغات الحيّة آنذاك، وهي النبتية والبجاوية. أمّا العربية، فإنه كان يستخدمها إذا ناداه سيّده قبل أن يُلحقه بنسبه ويصبح بعد ذلك أباه. وهكذا أصبح عنترة مضطرًا لأن يعرف هذا الخليط من اللغات الإفريقية والبجاوية والسودانية، وأخيراً العربية. فكان يتحدّث في مجالسه العائلية بهذه اللغات، ويتحدّث مع العرب بلغتهم التي لا يعرفون غيرها. ولعلّ هذا هو السبب الذي جعل نقّاد الشعر الجاهليّ لا يعترفون به كشاعر من عظماء شعرائهم، فلم يكن يُعَدّ على حدّ قولهم كامرىء القيس إذا شرب، والأعشى إذا طرب، والنابغة إذا رهب، وزهير إذا رغب. وكان المتوقّع أن يضيفوا إلى ذلك خامساً، وهو قولهم عنترة إذا ركب. ولكنّهم لم يفعلوا ذلك لعلّة عرفوها فيه، بالرغم من أن عنترة فتح باب الفخر بالفروسيّة والإقدام في الحرب بطريقة كانت مُستحدثة لم يعرفها العرب من قبل. ومع ذلك، فإنه لم يجد حظوة مماثلة لدى النقّاد كما لَقِيَها غيره من أصحاب المعلقات.

كان عنترة يجد نفسه مضطرًا لأن يعبّر عن نفسه

تعبيراً دقيقاً بكلّ هذه اللّغات، بل إنّه كان ممتازاً كمترجم من هذه اللّغات، إلى اللغة العربية. ولعلّنا ما زلنا نذكر كيف جاءت أُمّه زبيبة إليه في الليل لتتحدّث إليه طالبةً منه أن يبتعد عن الحروب، وأن يمتنع عن خَوْض أهوالها؛ لأنها كانت تخشى أن يُلاقي حتفه. ومن الطبيعي أن زبيبة لم تكن تُناجيه باللغة العربية، لأنها لم تكن تُجيد منها سوى كلمات قلائل، ولا شكّ في أنّها حدّثته بلغتها ـ لغة أُمّها السودانية التي أرضعتها في طفولتها وأرضعتها لعنترة في طفولته ـ وعبّرت عن نفسها بصدق وحرارة تجلّت في تلك الترجمة الرائعة إلى اللغة العربية التي نقلها إلينا عنترة في أبياته:

جاءت زَبيبةُ في الظلام تلومني
خوفاً عليّ من ازدحام الجَحْفَل
فأجبتها: إنّ المنية منهل
لا بدّ أن أُسقى بكأس المنهل
فاقْنَيْ حياءك لا أبا لك واعلمي
أني امرؤٌ سأموت إن لم أُقْتَل

فهل يمكن أن نجد مترجِماً موهوباً يستطيع أن يُترجم الأحاسيس إلى مثلها، وأن يترجم الكلمات إلى

مشاعر خلاّبة بمثل هذه الحيوية الناطقة، والتعابير الرائعة. من هناك يستطيع أن يفعل ذلك سوى عنترة؟. وهنا تتبيّن لنا عبقرية عنترة اللغويّة، وكيف أنه كان موهوباً في تعلُّم اللغات إلى درجة تُحيّر الألباب.

وكان بودّنا لو حفظ لنا الرواة من العبيد الذين كانوا مع عنترة أيام رَعْيه للإبل بعض أشعاره بلغة أُمّه، تلك الأشعار التي كان يتغنّى بها زملاؤه من العِبِدَّى في مراعيهم، وهي أبياتٌ لا شكّ أنها كانت تتحدّث عن أمجاده، وربما أمجاد أخواله السودانيّين. ولكن عدم التدوين للغات الأجنبية أضاع علينا تراثاً عجباً كان يمكن أن يجد طريقه إلى الخلود. ولعلّ غيري من الكتّاب يستطيع أن يواصل البحث في هذا المضمار، فيتمكّن من جمع أشعار عنترة باللّغة السودانية القديمة لتصبح من آثارنا الباقية.

بقي أمرٌ آخر هو ما زعمه أصحاب شعراء النصرانية الذين ذكروا في كتابهم صاحب الاسم بأنّ عنترة كان نصرانيًّا. وعند تقصّي هذا الزعم يجب أن نعرف كيف كان عنترة نصرانيًّا، ومن أين تلقّى هذا الدِّين؟ لو نظرنا إلى تاريخ والدته لوجدنا أنه لا يمكن أن تكون قد اعتنقت الدِّين المسيحيّ في السودان؛ لأن هذا الدِّين دخل السودان في سنة ٥٤٠ للميلاد، وهو

تاريخ بعد خروج زبيبة من وطنها إلى مهجرها.

بَقِيَ أن نقول: إن عنترة ربما اتّصل بأحد الرهبان النساطرة الذين كانوا ينتشرون في الجزيرة العربية، وربما كان ذلك حين زيارته للملك النعمان في الحيرة؛ إذ كانت المسيحيّة آنذاك آخذة في النشاط. ولمّا كانت لغة كنيسة القسطنطينية هي اليونانيّة، فإن هذا يعني أنّه كان لزاماً على عنترة أن يقرأ الإنجيل بتلك اللغة. ولكن هل وجد عنترة الوقت الذي يستطيع فيه أن يتعلّم تلك اللغة؟ إنّني أشكّ كثيراً في ذلك؛ لأن سيرة عنترة بعد أن شبّ لم تجعل له وقتاً ليتفرّغ لدراسة لغة جديدة. وإنني أميل إلى الاعتقاد بأنّ اعتناقه للمسيحيّة ـ إنْ حدث ـ فقد كان أمراً سطحيًا للغاية، ولم يتغلغل في نفسه تغلغلاً عظيماً.

والمعروف أن عنترة اشترك في معارك يوم ذي قار بين العرب والفرس، وأنه وقع أسيراً في يد الفرس، وكبّله كسرى بالأغلال والقيود، ثم لمّا عرف من فروسيّته وبلائه كبّله بأغلالٍ من الإحسان والإكرام، ومدحه عنترة في آخر الأمر بقصيدة عربية. وليس هذا هو المهم، بل المهمّ هو أنّ بقاء عنترة بعض الوقت في الأسْر عند الفرس لا بدّ وأن علّمه بعض الكلمات الفارسية، وهذا يجعلني أصل إلى نهاية حديثي من أن

عنترة كان يلمّ إلماماً جيّداً بأربع لغات هامّة في ذلك العهد، وهي اللغة السودانية، والبجاوية، والنبتيّة أو المرويّة، والعربية، كما أنه يعرف بعض المفردات الإغريقية والفارسية؛ فيا له من فارسٍ لغويّ!

obeikandl.com